وظيفة الأدب، والرواية، اليوم

حنا مينه

من دمشق، المدينة الأقدم في التاريخ، أحمل تحية الثقافة العربية إلى باريس، عاصمة النور، ومركز الإشعاع الفكري العالمي، ويسعدني، كما يسعد زملائي الروائيين العرب، أن نقيم حواراً حميماً وبنّاءً مع زملائنا الروائيين الفرنسيين، في أول لقاء بيننا، على اسم الكلمة، هذه التي نبحث عنها، كما يبحث الصياد عن السمكة، وينتظرها، ويغازلها، ويعاني طويلاً في سبيل اصطيادها، وإخراجها من زرقة البحر، حيث المدى أبعد من الظن، إلى الأرض النبيلة، أرضنا، أمنا، المنورة بأشعة شمس يتوهّج ألقها، كأنه حلم ليلة صيف، منسوج من مخملية إعاطفة في قلب حسناء ما خفق قلبها للحب إلا في ليلته تلك.

إن الرواية، اليوم، هي الجنس الأدبي الأوسع انتشاراً في أربع جهات الأرض، والأكثر حفاوة من قبل القرّاء. إنها تتقدّم لتحتل المكانة الرفيعة، الجديرة بها بين الأجناس الأدبية الأخرى، وهي أن تستأنف مجد رؤية القرن التاسع عشر، فإنها تتقدم لتعطي هذا المجد شموخاً أكبر، يتناسب والنصف الثاني من القرن العشرين، سواء في المضمون أو الشكل، وستغدو الرواية، في القرن الحادي والعشرين، سيدة الأجناس الأدبية، لأنها تزيح القصة القصيرة والمسرحية والقصيدة عن مكانها قليلاً، وتكتسب، في النثر، المنزلة الأرفع، بما هي حياة، وبما هي عالم من مزجة الواقع والخيال. نحن الذين نبنيه، ونشكله، على الصورة التي تنبثق من حلم المستقبل، وتصنع هذا المستقبل ثورة اجتماعية وإنسانية، زاخرة بكل أماني الناس، الذين كان الأدب، في كل أجناسه، متعة ومعرفة لهم، ومانح رؤية لأجيالهم. والرواية، إذن، تحسن وظيفة الأدب، ومعها مسئوليته، بالحجم الذي لها كجنس أدبي يأتي في الطليعة.

ولا أحب أن أكرر ما هو معروف من أن للأدب وظيفة اجتماعية، فهذا، في عصرنا، أصبح من البدهيات، وصار في خلفية المفاهيم، وفي قمة المنسيات أو يكاد، ذلك الزعم الذي يكرس الأدب للأدب، أو الفن للفن، ما دام لا شيء، في نهاية المطاف، إلا ويقول ذاته، حتى حين يدعي أنه لا يقولها، أو أنه يلهو بها، ويتعبّد لها. هكذا، لوجه اللهو، أو التعبد، أو وجه عشق الكلمة من أجل الكلمة وحدها، وزركشة الألفاظ قلادة من خلبية السراب.

ذلك أن الأدب يأخذ من الواقع، ويعطي الواقع، في تلك العملية الإبداعية الابتكارية التي نحار في سرها، لكننا نتذوق هذا السر الإبداعي بكل حواسنا، وكل جوارحنا، ونقف أمامه دهشين، لأنه السرّ الأعظم، سر تفكيك العالم الداخلي وإعادة بنائه، في صنع جميل، المعلّمية وحدها تملك مفتاح مغارته المرصودة، والمعلّمية وحدها تعرف أن تصوغه من الرؤى والأحلام والأحداث والتهاويل، والمعلمية، كذلك تعرف أن تستمده من المجتمع، من الطبيعة، من العلاقات المؤنسة في الكائنات، وبذلك تكون قد تناولت مادتها المطاوعة للسبك الفني من شيء يمت إلى دنيانا، إلى أحلامنا، وبكلمة أخرى إلى فكرنا، لأنه، حتى الفلسفة اليونانية، لاحظت أنه لا شيء يخرج من لا شيء.

لماذا أقول هذا؟ لكي أؤكد أن الرواية العربية، كالرواية الفرنسية. أو كالرواية بعامة، تستلهم ما حولها، وتستلهم الإنسان، هذا المعطي الأزلي لكل إبداع فني، من الداخل

والخارج، وتنسج ما استلهمته وتضيف إليه الحياة، الروح، أي الفن، وفي وسعي أن أقارب الحقيقة حين أذكر أن الرواية العربية بخير، وهي في أفضل حالاتها، وتضع في حسابها دائماً أمرين أساسيين: أن تعمق تجربتها، حدثاً وفناً، وتشقّ طريقها، عبر بيئتها، إلى عالميّتها، وتملك إضافتها المستقبلية، الإضافة التي تكثّف تجربة إنسانية حية، معاشة، وتعطيها أن تكون في المستقبل، كما هي في الحاضر، شريحة اجتماعية مكتوبة بلغة روائية على مستوى العصر.

قد يقال إن الرواية العربية لم تخترق جدار الصوت بعد، وأقول أين هي الرواية الأوربية أو غير الأوربية التي تخترق جدار الصوت، بمعنى أن تكون رائعة الروائع، ومع ذلك يمكن أن أذكر، إذا سمعتم، ثلاثية الروائي العربي الكبير نجيب محفوظ، «قصر الشوق» لأقدم مثلاً على روعة رواية لا تقل في أهميتها، وفي قيمتها الفنية عن رواية «مائة عام من العزلة» لماركيز، أو أن أذكر، لو يتسع المجال، أسماء روايات عربية كثيرة تقف على نفس المستوى الفني للرواية العالمية المعاصرة.

أما بالنسبة لي، فإنني روائي واقعي رومانتيكي كما يرى بعض النقاد، وأذهب أكثر فأقول إنني روائي قدّم في رواياته صورة للواقعية الاشتراكية، بعد أن ثبت أن الواقعية الاشتراكية طريقة في التعبير الفني لا تخص البلدان الاشتراكية وحدها، بل هي تستخدم خارجها أيضاً، بما استطاعته من إضافة البعد الثالث، المستقبلي، بعد أن كانت الواقعيات قبلها تتناول البعدين: الحاضر والماضي فقط، مع إيماءات مستقبلية في أفضل الأحوال، وقد تمكنتُ، في ما كتبته من روايات حتى الآن، من طرح القضايا طرحاً صحيحاً، وهذا هو المطلوب من الأدب والفن. وقد قال مكسيم غوركي: «بما أن حقيقة المستقبل واضحة وبسيطة، فإن للكاتب أن يجنح إلى البساطة والإيحاء». ودافع غوركي بحرارة عما أسماه بالرومانتيكية الثورية، مبرراً موقفه بأن «هذه الرومانتيكية ليست في حقيقة الأمر إلا اسماً مستعاراً للواقعية الاشتراكية» والمهم هو التخييل، هو الابتكار، هو التجريب، هو تعدّد الأشكال والأساليب، هو الصدق، وهو الحرارة، حين يكون علينا أن نبقي الجمرة المقدسة مشتعلة في صدرنا، وحين يكون علينا ألا نلتقط ما تقع عليه العين وما تسمعه الأذن، أو ما ينعكس في الذات، إلا بعد أن يختمر في ذاتنا، ويصير ذاتاً أخرى، إبداعية هذه المرة، في تلك العملية المعقدة التي تعطي فناً حقيقياً، مبدعاً، وبذلك يتحول ما هو في المحسوس، إلى شيء غير محسوس، نستشعره، في صور مبهمة، ونرتعش له من تأثرات داخلية، إيهامية، أو حسب ما قال بريخت: «إنني أتلقى في ذهني تمثّلات مبهمة للألوان، وانطباعات خاصة لبعض فصول السنة، وأسمع إيقاعات بلا ألفاظ، وأرى لفتات بلا معنى، فتنمو لديّ رغبة في خلق تكوينات أشكال غير مجهولة، هذه الأخيلة غير قابلة للتحديد بأي حال، وأظن أنها على قدر كبير من الشفافية، لكنها موجودة، إنها ماثلة أمامي». (من كتاب **منهج الواقعية في الإبداع الأدبي** للدكتور صلاح فضل).

لقد ولدت الواقعية في الأدب العربي، وفي الرواية العربية تخصيصاً، منذ الأربعينات من هذا القرن، وصارت تياراً زاخراً، على درجة كبيرة من التعميمات الفنية، وفي هذه الرواية جرى التعامل مع الواقع، ليس بصورته الجاهزة، أو الكاملة، بل مسته يد التغيير والتبديل، سواء في صياغته، أو في إعطائه شكلاً ما، شكلاً تخلّق به روائياً في غير الشكل الذي كان عليه في المجتمع والطبيعة.

وأنتم تعلمون تماماً، أن الكتابة الروائية ليست انزلاقاً في فراغ، أو دوراناً على محور بعينه لا تتعداه، بل هي بناء من صور، يكتسب نفسه في المشهد الروائي، على أساس اقتصاد دقيق ومحكم في الكلمات، وعلى درجة عالية من المهارة في جعل الصورة المتشكلة في المخيلة، صورة مقروءة في العين، مرئية بالباصرة، ممتعة في التذوق، متسقة مع السياق، ذات إيقاع وتشويق كاملين، الأمر الذي يجعلنا نتعلم، كما في الفنون الأخرى، أن نركز، وأن نكثف، وأن نستثمر الزمن، ونكسر ترتيبه وتواتره، فنبتكر من خلال الرواية ماضينا وحاضرنا وأحلامنا وذاكرتنا كلها.

وهكذا فالرواية المشغولة جيداً، على أساس الموهبة، وعلى أساس الحدث، وتناميه، سياقاً وشخوصاً، تسيطر علينا، وتعطينا دلالتها من ذات موضوعها، ومن فكرته ونسيجه، ومن روعة صياغته، حتى ننسى أنفسنا أمام مثل هذه الرواية التي تأخذنا إليها، وتضعنا في جوها، وتملي علينا، بإيقاعها وتشويقها وشاعريتها معاً، ما تريد ان تقول، حين يكون لديها ما تقول، ويصبح الخلق الروائي، في هذه الحال، خلقاً معالجاً بالفكرة وتحليلها، وكذلك تجسيدها عبر الصور، عبر الإيحاءات، وعندئذ ننفعل، ونندغم، دون أن ننسى أنفسنا، ونتأثر بالعالم الرحيب المفتوح أمامنا، المتشكل صفحة بعد

صفحة، ونقع تحت سيطرته، لأنه عالم من بنائنا، من ابتكارنا، وليس منهما في آن، فهو واقع وخيال، وهو أدب حقيقي ذو موهبة عالية.

ومن المفروغ منه أن العمل الروائي يرتكز على الصراع، على تصادم المتناقضات في قلب وحدتها، على فهم جدلية الحياة، وإبراز تنافرها وانسجامها، لتأتي الرواية بعد ذلك متساوقة وهذا الكل، متناغمة في شموليتها، وفي رؤيتها الإنسانية وطرحها الاجتماعي، أو تحليلها النفسي. ويظل الإنسان، ابن الوجود، وسبباً من أسباب صيرورته وجوداً حياً عاقلاً ومتطوراً، هو مدار العمل الأدبي الفني، ومن هذا الإنسان، حين نكون مستلهمين للواقع في تحوله فناً، يجب أن نأخذ، وله يجب أن نعطي، ولن يكون ثمة أخذ وإعطاء إنسانيان إلا بفهم المجتمع. وبامتلاك مفهوم متكامل عنه، لأننا في الوسط الاجتماعي الذي نعيش فيه، ونتحرك ضمن بيئته، برغبة صادقة أمينة في التعبير عن قضاياها ومشاكلها وتطلعاتها، نكون قد أدينا دورنا، لا متفرجين على ما يجري، بل ومساهمين أيضاً في تغيير هذا الذي يجري.

إن وظيفة الأدب والرواية اليوم، كما كانت دائماً، هي أن تصنع المستقبل، وصناعة المستقبل هي صناعة الثورة، وفي عالم مهدد بالحرب النووية، وبالفناء البشري، وبالعدوان على الغير، وأرضه، وحقه، عليهما، في الأدب والرواية، أن يعملا، من خلال الكلمة، منثورة ومنظومة، وفي سوية فنية رفيعة، توائم بين الأصالة والحداثة، على مناصرة السلم العالمي، والتحرر الوطني، والتقدم الاجتماعي، وشجب الاستيلاء على أرض الغير بالقوة، واستنكار الإجرام الموجه ضد الذين يناضلون في سبيل إنهاء الاحتلال، واستعادة الحقوق المغتصبة، كما يجري الآن في الأراضي العربية المحتلة، حيث الانتفاضة الشعبية، أو انتفاضة الحجارة كما انتزعت، واستحقت، اسمها، قد هزّت الضمير العالمي، واستثارت سخطه ضد القمع الدامي الموجه ضدها من قبل الاحتلال الاسرائيلي.

ومن الطبيعي أن ما ذكرته، هو جانب من مهمة الأدب والرواية، إلى الجانب المتصل بالقضايا المباشرة والساخنة في وطننا العربي، وكذلك القضايا العالمية، كقضية السلم في وقتنا الراهن، لكن مهمة الأدب، قد كانت، وستبقى، تتناول قضايا العصر الكبرى، بالاهتمام نفسه الذي تتناول فيه قضايا المجتمع والطبيعة والناس والذات البشرية، والقضايا الإنسانية بعامة، من الحب إلى المرأة فالرجل فالزهرة، فالشجرة، فالبحر والغابة، وكل نوازع الإنسان، وكل تصرفاته، الداعية والعفوية، وكل سلوكيته الاجتماعية والنفسية.

إن ما ذكرته عن الانتفاضة الشعبية في الأراضي العربية المحتلة، هو مثل على الأحداث النضالية، بكل أشكالها وألوانها، التي يواجهها الأديب والروائي العربيان، وفي مقدمتها قضية الديمقراطية، التي لا يزدهر الأدب، في كل أجناسه، إلا في ظلها، وإذن فإن لدينا، نحن الروائيين العرب، الكثير الكثير من الموضوعات التي تطرح نفسها علينا بإلحاح. ومنها موضوعات الاستغلال والاستثمار والاستعباد من قبل إنسان لآخر، ومن قبل الاستعمار لبعض دول العالم الثالث، ونحن لا نستطيع، ولا ينبغي علينا، أن نتجاهل هذه المواضيع، لأنها من نسيج حياتنا اليومي.

قيل لشاعر تشيلي الكبير، بابلو نيرودا. لماذا لا تتحدث عن الزهر؟ فأجابهم: انظروا الدماء على بلاط شوارع تشيلي. ونحن مع حديثنا، أدبياً وروائياً، عن الزهر والعطر، والنفس الإنسانية بكل ما في عالم النفس من غنى، لا بد لنا أن نتحدث عما هو خارج هذه النفس، وعن مقاومة العدوان والاحتلال، وعن الدماء والضحايا في أراضي فلسطين العربية المحتلة.

آمل أن أكون قد وفقت في التعبير عن وظيفة الأدب والرواية اليوم، من وجهة نظر الروائيين العرب، والقضايا التي تواجههم، القضايا التي يريد الناس عندنا أن يروا صورتهم، في مرآتها. ومن المؤكد أننا في تناولنا للقضايا الاجتماعية والوطنية والقومية، نستبعد الخطاب السياسي، ونعتمد الخطاب الأدبي، وننبذ الإسقاط والافتعال والصراخ في الفن، لأنه لا شيء يقتل الفن مثل التعسف والإسقاطات والصراخ الذي يذهب، كالزبد، جفاءً (*).

(★) ورقة قُدمت إلى «ندوة الإبداع الروائي اليوم» التي أقامها معهد العالم العربي في باريس من ١ - ٤ آذار ١٩٨٨.